4 قراءة في كتاب

التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب
ISLAMIC MILITARY COUNTER TERRORISM COALITION

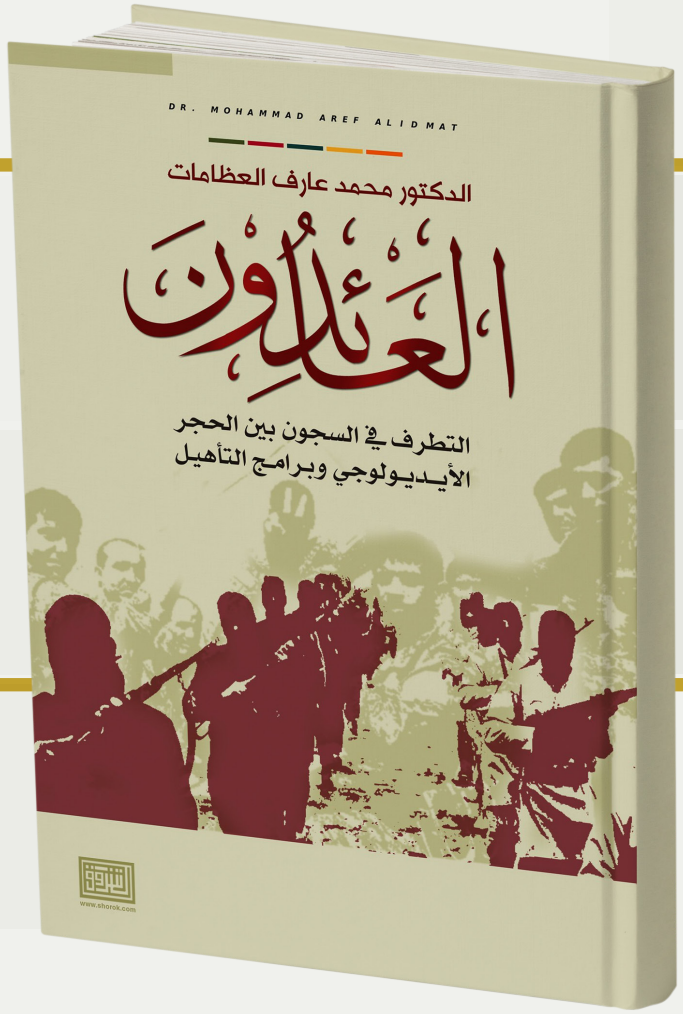

العائدون

التطرف في السجون بين عتمة الحجر الأيديولوجي وبرامج التأهيل

تأليف الدكتور محمد عارف العظامات

التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب

قراءة في كتاب 4

العائدون

التطرف في السجون بين عتمة الحجر الأيديولوجي وبرامج التأهيل

تأليف الدكتور محمد عارف العظامات

ISBN 9957007246
9789957007249

دار الشروق للنشر والتوزيع
عمّان – 2019

التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب
ISLAMIC MILITARY COUNTER TERRORISM COALITION

في كتابه **"العائدون"** يسلِّط الدكتور محمد عارف العظامات الضوء على منطقة معتمة يرى أنها لم تحظَ بالاهتمام اللازم من قِبَل الدول في جهودها وسياساتها في مكافحة التطرف والإرهاب، وفي الوقت نفسه يلفت انتباه صانعي السياسات الأمنية وغيرها إلى واجب أساسيٍّ آخرَ يُوكَل إليهم، وهو ما يتعلق بالمحتجَزين لديهم من نزلاء قضايا التطرف والإرهاب في السجون. فما زال كثيرون يعتقدون أن محاكمة الإرهابيين وتنفيذ عقوبة السجن بحقهم هي الفصل الأخير الذي يُسدِل الستار على زوال الخطر والتهديد الذي تفرضه هذه الفئة من الأفراد، لكن الواقع الذي يدركه الأمنيون أكثر من غيرهم يؤكد أن حجزهم في السجون ما هو إلا بداية فصل جديد من سلسلة جديدة من المخاطر والتهديدات الأمنية لا تقل خطرًا عن نشاطهم خارج أسوار السجون.

العائدون الذين يقصدهم المؤلف في هذا الكتاب هم الشباب الذين التحقوا بساحات القتال في سوريا والعراق في مطلع العِقد الحالي، سواءٌ أكانوا من مقاتلي (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام) أم من أي فصيل جهادي آخرَ تحت أي اسم. فهم العائدون إلى أوطانهم من ساحات القتال، وليس بالضرورة أن يعودوا من العراق وسوريا مباشرة، بل قد تكون هناك محطات جهادية أخرى في طريق عودتهم إلى أوطانهم التي لا نعلم متى ولا كيف ستكون؟

العائدون هم آلاف الشباب الذين قرروا الالتحاق بساحات القتال، وهم الذين تركوا الأهل والولد والمال بعد أن جذبهم بريقُ دعوة ما يرَون أنه جهاد مقدَّس، وهم الذين قرروا التوقف فجأةً عن ممارسة الدور الثانوي الممل في حياتهم الرتيبة، ليصنعوا لأنفسهم حياةً أخرى هم وحدَهم فيها الأبطال، وهم الذين ظهروا في صور (الفيس بوك) مبتسمين يرفعون البنادق بأسماءٍ وملابسَ وهيئاتٍ جديدة، وهم الذين كتبوا وأرسلوا إلى أقرانهم (تعالَوا إلينا) يحثونهم على الانضمام إلى صفوفهم.

العائدون من القتال حالة تاريخية عرفتها جلُّ أمم الأرض ولا تقتصر على الجهاديين، فبعد انتهاء كل قتال هناك دائمًا من يعودون من القتال، لكن **ما يميز هؤلاء أنهم في ظنّ الكثيرين قد عادوا من القتال للقتال.**

ثَمَّة تعاريفُ كثيرةٌ لهؤلاء (**العائدون**)، لكن التعريف الذي يهمُّنا هنا هو: (**أنهم الذين تنتظرهم السجون**)، وهذا التعريف الحادُّ جدًّا يمثل الواقع المرير الذي لا بد من مواجهته. لذا يتساءل المؤلف في مقدمة الكتاب:

هل السجون في العالم العربي والإسلامي مُهيَّأة لاستقبالهم؟ وهل لدى القائمين عليها ما يقدمونه لهم من برامجَ إصلاحيةٍ وتأهيلية تتحدى الأيديولوجيات المتشددة التي يؤمنون بها؟ وهل لديهم سياسة واضحة للطريقة المُثلى في التعامل معهم طَوال مدة احتجازهم؟ وهل لديهم ما يضمن عدم انتشار فكرهم في مجتمع

السجن واستقطاب النزلاء الجنائيين وتجنيدهم؟ وهل لدى أصحاب القرار الأمني تصور واضح عن السبُل الآمنة إلى دمجهم في المجتمع بعد انقضاء عقوبتهم مع ضمان ألا يعودوا إلى التطرف؟

في كثير من الحالات يُعَد من قبيل الترف أو استنزاف موارد الدولة بذلُ جهود خاصة بهذه الفئة من المسجونين، بل يرى كثيرون أن هؤلاء الذين كانوا وراء ترويع الناس وإلحاق الضرر بهم لا يستحقون من المجتمع أيَّ معاملة حسنة أو رعاية خاصة، وأن أي مساعٍ أو محاولات تُبذل لإصلاحهم ستكون عديمةَ الجدوى، ولا يُستبعد أن يستغلها هؤلاء للحصول على بعض المكتسبات التي لا يستحقونها، كالإفراج المبكر عنهم. هذه القناعة ويا للأسف لم تنحصر في عقل المواطن الساذج فحسب، بل تجاوزته إلى عقول أصحاب القرار الأمني الذين يرَون الأولويةَ القصوى والمُلحّة لتوفير السجون الحصينة التي تضمن احتجازهم ومراقبتهم والسيطرة عليهم، وما سوى ذلك فليس بذي أهمية!

في صفحات هذا الكتاب يثبت محمد عارف العظامات أن هذا الفهم خاطئ ومخالف للواقع ومجانب لعين الحقيقة، تلك الحقيقة التي تدعونا إلى قراءة التاريخ وتفرض علينا أن نقفَ عند أسوار السجون؛ لندركَ أن خلف أبوابها الموصدة المُحكَمة كُتب الكثير من سطور الكراهية وصُنِّفت كتب التطرف والعنف البغيض. ومن وراء قضبان نوافذها الضيقة أُطلقت فتاوى الإقصاء والتكفير. وبين أروقتها المظلمة وُلدت أخطر المؤامرات المدمِّرة التي غادرت السجن مسرعةً قبل أصحابها! في السجون التقت المهارات والخبرات الإجرامية مع الأفكار والآراء الظلامية، وسارت جنبًا إلى جنب في (ساحات التنفس والتشميس) وقبل أن يأمر السجَّان بالعودة إلى الزنازين كانت قد أصبحت هذه المهارات ضربًا من ضروب الجهاد في سبيل الدين، ورخصةً شرعية لقتل الآخرين.

ويصل المؤلف في مقدمة كتابه إلى أن الحقيقة التي لا مفرَّ منها هي "أننا لا نملك الخيار بين أن نكتفيَ بحجز المتطرفين والإرهابيين وبين أن نُخضعَهم للبرامج الإصلاحية التأهيلية، ويجب أن نكون صريحين وصادقين مع أنفسنا ونطرح الأمر بصيغة: إن لم نفعل شيئًا فإنهم سيفعلون". وبعبارة أكثر جرأةً يقول: "إن سنوات السجن قد تكون في صفِّهم أكثر مما هي في صفِّ الدولة، فإذا كانت الحرب على الإرهاب هي حربَ الأفكار، فإن السجون التي تخلو من أي تدخُّلات إيجابية هي بامتياز مصنعُ تلك الأفكار. والمنطق والسوابق التاريخية وفهمنا لخطر هذه الفئة من النزلاء يُلزمنا أن نتدخل، حتى إن لم نتمكن من إصلاحهم أو إعادة تأهيلهم، فإننا على الأقل نستطيع أن نمنعَ انتشار خطرهم بين بقية النزلاء".

> **الحرب على الإرهاب هي حربَ الأفكار، والسجون التي تخلو من أي تدخُّلات إيجابية هي مصنعُ تلك الأفكار**

الراديكالية

يتناول الفصل الأول من الكتاب موضوعَ الراديكالية،وقد أظهرت الدراسات الضعف الكبير في اتفاق الباحثين والمختصين على تأطير مفهوم واضح لظاهرة الراديكالية، من حيث الأسبابُ الدافعة إليها أو المؤدية إلى تبني العنف من بعض نسخها، ثم طبيعة العَلاقة التي تربطها بالإرهاب. وإن السؤال الرئيسَ والمركزي في هذه الدراسات هو دائمًا: لماذا يلتحق الأفراد بالمنظمات التي تتبنى الأفكار المتطرفة؟ ومتى يلتحقون بها؟ وكيف؟ ثم لماذا ينخرط بعض هؤلاء في الأفعال العنيفة التي تهدد أمن المجتمعات؟ وكيف ينخرطون؟

أوضح المؤلف في هذا الفصل من الكتاب مفهوم الراديكالية، مع مناقشة التعريفات المتعلقة بها التي وضعها الأكاديميون وصانعو القرارات السياسية، ومناقشة العوامل والأسباب التي تقود إلى الراديكالية على المستوى الفردي والجماعي، وتطرق إلى مستويات عمليات الراديكالية وعَلاقتها بالسلوك الإرهابي.

وبالرغم من اختلاف الباحثين والدارسين، إن الدراساتِ والبحوثَ المتعلقة بالراديكالية تُجمع على الحقائق الآتية:

أولًا: هناك ارتباط واضح بين الأفكار الراديكالية والمتطرفة من جهة، وبين استخدام العنف من جهة أخرى، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تُترجَم دائمًا الأفكار الراديكالية والمتطرفة إلى العنف. فالأفراد والمجموعات التي تحمل الأفكار الراديكالية من الممكن أن تبتعد عن العنف في التعبير عن أفكارها، وفي الوقت نفسه قد يكون الانخراط في العنف بمعزل عن الأفكار الراديكالية والمتطرفة، فليس كل عنف مؤدَّاه الراديكالية والتطرف؛ إذ من الممكن أن تلجأ المجموعات الموالية والمؤيدة لنظام سياسي قائم أو المجموعات المعارضة والمنافسة إلى العنف دون أن يكون مبعث ذلك الفكر الراديكالي.

ثانيًا: أفضل طريقة لفهم الراديكالية هي التعامل معها بوصفها عمليةً ذات ديناميكية متعددة الأوجه، وظاهرة ذات خطوات متعددة، تحدث نتيجة التفاعل بين الفرد المُعرَّض للراديكالية وبين بيئة اجتماعية تشجع على تبني الأفكار الراديكالية.

> **أفضل طريقة يمكن من خلالها فهم الراديكالية هو التعامل معها بوصفها عملية ذات ديناميكية متعددة الأوجه، وظاهرة ذات خطوات متعددة، تحدث نتيجة التفاعل بين الفرد وبيئة اجتماعية ذات محتوى محدد**

ثالثًا: يجب عدم إغفال ثلاثة مستويات عند دراسة العوامل المحفِّزة للراديكالية وتحليلها، وهي: المستوى الفردي Micro وهو ما يتعلق بالفرد نفسه، والمستوى المحيطي الاجتماعي Meso وهو ما يتعلق بالمحيط الاجتماعي والمجموعة التي تحيط بالفرد، والمستوى الجماعي Macro وهو المجتمع الأكبر والبيئة السياسية التي تحيط بالمجموعة الكلية.

أسباب الراديكالية وجذورها

وتناول الفصل الثاني من الكتاب أسباب الراديكالية وجذورها، وراجع عددًا من النظريات العلمية الاجتماعية التي تفسر الانتقال من الراديكالية إلى العنف والإرهاب، وهي كما استنتج Borum ترجع إلى ثلاثة عوامل أساسية، الأول: تطوير عدم التعاطف Antipathy تجاه المجموعات المستهدفة. والثاني: خلق تسويغ للأفعال العنيفة. والثالث: التخلص من العوائق الاجتماعية والنفسية (السيكولوجية) التي تقف حائلًا دون استخدام العنف.

عوامل الانتقال من الراديكالية إلى العنف

01 تطوير عدم التعاطف تجاه المجموعات المستهدفة.

02 خلق تبرير وتفويض للأفعال العنيفة.

03 التخلص من الكوابح التي تقف حائلا أمام استخدام العنف.

وناقش هذا الفصل عددًا من النماذج التفسيرية المختلفة للعوامل المسببة للراديكالية والإرهاب، مع التفريق بين ثلاثة مستويات من التحليل، وهي كما وصفها Schmid: المستوى الفردي Micro، والمحيطي Meso، والجماعي Macro.

- **المستوى الفردي Micro-level:** وهو يتضمن على سبيل المثال مشاكل الهوية الذاتية، والإخفاق في التكيف والاندماج مع المجتمع، والشعور بالعزلة، والمعاناة من التمييز، والشعور بالحرمان والإذلال والوصم والرفض، وهذا عادةً ما يرتبط بالغضب المعنوي والرغبة في الانتقام.
- **المستوى المحيطي (البنائي) Meso-level:** وهو الوسط الاجتماعي المحيط بالفرد، وقد يكون داعمًا له أو محبطًا له، وهو يعمل كنقطة وصل أو فصل بين الفرد ودائرة الراديكاليين والإرهابيين، ومن ثَمَّ ينقل بعض الراديكاليين من الراديكالية إلى منطقة العنف والإرهاب والمنظمات الإرهابية.
- **المستوى الجماعي Macro-level:** وهو على سبيل المثال دور الحكومة والمجتمع داخليًّا وخارجيًّا، ومستوى الراديكالية عند الرأي العام وعند الأحزاب السياسية، والضغوط الناتجة عن عَلاقات الأكثرية والأقلية وبخاصة في مجتمعات الشَّتات، ودور نقص الفرص الاجتماعية والاقتصادية التي تقود إلى الراديكالية، وحالة الاستياء العامّ التي قد تتحول إلى أفعال إرهابية.

> **ليس هناك سبب وحيد للإرهاب، أو مسار محدد واضح يمكن القياس عليه في الانتقال من الراديكالية إلى الإرهاب**

يقرِّر الفصل أنه ليس هناك سبب وحيد للإرهاب، أو مسار محدد واضح يمكن القياس عليه في الانتقال من الراديكالية إلى الإرهاب؛ إذ هناك الكثير من الأُطر المفاهيمية في تحليل الأسباب الجذرية والعوامل المسببة للراديكالية. لكن وبالرغم من هذا التعدد والتباين ثَمَّ اتفاق بين الأكاديميين على ضرورة تحليل الأسباب الجذرية للإرهاب والراديكالية التي تُعَد العواملَ الساحبة، والعوامل الدافعة Push Factors (تسمى في بعض الأحيان العوامل الداخلية والخارجية)، وتحليل الظروف المجتمعية المحفِّزة والمشجعة على الراديكالية والإرهاب. وبمراجعة النظريات المقدمة لتفسير الراديكالية والتطرف، يخلص المؤلف إلى النتائج الآتية:

- الجهد النظري للفقه الغربي اتجه بوضوح إلى أن الراديكالية تظهر من خلال خطوات محددة ولا تظهر ظهورًا مفاجئًا، لكنه لم يُجمع صراحةً على ماهيَّة هذه الخطوات وترتيبها، بيد أنها تتضمن في الغالب: الانفتاح المعرفي، والانعزال والانطوائية، والتجنيد، وتسويغ الأفعال الراديكالية، وتبادل الآراء المتطرفة.
- يميز الفقه الغربي بين مستويات تحليل الراديكالية؛ بين المستوى الفردي، والمستوى المحيطي والمستوى الجماعي، ويُجمع على جُملة من العوامل المؤثرة في المستويات الثلاثة من شأنها أن تقود الفرد إلى الراديكالية، ثم تضعه على مسار العنف، دون أن تكون تلك نتيجةً حتميَّة؛ إذ من الممكن ألا تصل الراديكالية إلى السلوك العنيف، وتبقى في طور راديكالية الأفكار دون راديكالية الأفعال.

> **العامل الأيديولوجي ليس بالعامل المركزي أو الرئيس الباعث على الراديكالية، بل إن تأثيره يكون بالتساوي والتوازي مع بقية العوامل الأخرى**

- بالمجمل يرى الفقه الغربي أن العامل الأيديولوجي ليس بالعامل المركزي أو الرئيس الباعث على الراديكالية، بل إن تأثيره يكون بالتساوي والتوازي مع بقية العوامل الأخرى التي تسبب الراديكالية، وعندما يُستحضَر العامل الأيديولوجي لا يرى الفقه الغربي سوى السلفية الجهادية كأيديولوجية مُتبنَّاة

لتسويغ السلوك الراديكالي، ومن الواضح جدًّا عدم إدراك الفقه الغربي العميق لهذا الفكر أو التمييز بينه وبين غيره من الاتجاهات الفكرية.

- يُجمع الفقه الغربي على أن الوسط الاجتماعيَّ والعَلاقاتِ والروابطَ المختلفة ذاتُ أثر متفاوت في استقطاب الفرد إلى المحيط الراديكالي، بل إن الوسط الاجتماعي الراديكالي يؤثر تأثيرًا مركزيًّا في كثير من الأحيان في مسار الأفراد على طريق الراديكالية.
- أغلب الأفكار الرئيسة للنظريات الغربية في تفسير الراديكالية الإسلامية تتمحور حول الظاهرة في المجتمعات الإسلامية في أوربا والغرب، لذا تتجه هذه الأفكار إلى محنة الهوية الشخصية، ومعاناة التمييز والتهميش التي يعيشها مسلمو الغرب، وضعف القدرة على التكيف مع القيم الغربية وتحديات الظروف الاجتماعية والمعيشية، فضلًا عن مسألة التباين والاختلاف الثقافي.

الراديكالية والسجون

ناقش الفصل الثالث من الكتاب موضوع الراديكالية والسجون، ودعا المؤلف فيه إلى التعامل مع السجون على أنها أكثر من مجرد عقوبة وتأديب. فيجب أن تسود النظرة الإيجابية التي تجعل من بيئة السجن مصدرَ إلهام لصانعي القرار السياسي، ولخبراء مكافحة الإرهاب في

> **يجب أن تسود النظرة الإيجابية التي تجعل من بيئة السجن مصدر إلهام لصانعي القرار السياسي ولخبراء مكافحة الإرهاب لتصبح السجون مقبرة للأيدولوجيات المتطرفة وليس عُشاً لتفريخها**

الوكالات الأمنية، ولسلطات السجن أيضًا؛ لفهم هذه الفئة من المواطنين وفهم الفكر الذي قادهم إلى العنف، وتمكين نظام السجن كي يكون مقبرةً للأيديولوجيات المتطرفة وليس عُشًّا لتفريخها، وذلك بالاهتمام بالبرامج الإصلاحية التي تستهدفهم، والقناعة والإيمان بجدوى هذه البرامج.

وسعى هذا الفصل إلى معرفة تأثير بيئة السجون في النزلاء المُعرَّضين للراديكالية وللأفكار والمعتقدات المتطرفة، واستعرض العديد من الأمثلة الواقعية للكثير من الذين تحولوا إلى العنف والإرهاب بسبب تأثير حياة السجن. فعند الحديث عن أبعاد مشكلة الراديكالية والتطرف في السجون فإن صفحات التاريخ تتزاحم في تقديم الأمثلة الكثيرة عن ولادة الأفراد والمجموعات والتيارات الفكرية والمؤلفات والأدبيات والفتاوى الحادة خلف قضبان السجون، مما يصعب الإحاطة به في هذا الفصل من الكتاب.

> **السجون مكوِّن رئيس للتطرف من الناحية الفكرية والتنظيمية واللوجستية، وهي توفر قاعدةً للمتطرفين النزلاء للتقابل والتعاون فيما بينهم**

وقد أثبتت السجون أنها مكوِّن رئيس للتطرف من الناحية الفكرية والتنظيمية واللوجستية، وأنها توفر قاعدةً للمتطرفين النزلاء للتقابل والتعاون فيما بينهم. ومن أبلغ الأمثلة التي تُفصح عن ذلك: إتاحة معتقَل Camp Bucca في العراق الذي أدارته القوات الأمريكية ما بين عامي 2003 و2009 الفرصة لنزلائه لإنشاء عَلاقات بين مجموعات مختلفة منهم. هذا السجن الذي احتضن أعدادًا كبيرة من الجهاديين والبعثيين السابقين في مرحلة التمرُّد المسلح بالعراق استطاع باقتدار أن يمنح المجموعتين المجال للتعاون فيما بينهما، وتبادل الخبرات والأفكار والعقيدة القتالية. ويشير علي صوفان Soufan أحد ضباط الاستخبارات الأمريكية FBI السابقين الذي أمضى مدة طويلة في ملاحقة التنظيمات الإرهابية، يشير إلى أن قرار الإدارة الأمريكية بحلّ حزب البعث العراقي، وحلّ الجيش العراقي وتسريح ضبَّاطه، دفع الكثير من البعثيين إلى أحضان تنظيم القاعدة على اعتبار أن لهم

هدفًا مشتركًا وهو حماية المكوِّن السنِّي في العراق. فقدم البعثيون إلى المتطرفين ما يفتقدونه من خبرات تنظيمية، ومهارات عسكرية، وانضباط وتدريب ممتاز، وهذه العَلاقة تطورت إلى ولادة أول جيش مسلح لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش) في هذا المعتقَل الأمريكي. ومع أن إدارة المعتقَل نجحت في فصل النزلاء بحسب الطوائف في العراق؛ لتجنُّب الاضطراب والشجار بينهم، لقد أخفقت في فصل النزلاء السنَّة المتشددين عن النزلاء من السنَّة المعتدلين، وهذا الوضع أوجد بيئة مناسبة لتفريخ التطرف، خصوصًا أن القائمين على إدارة المعتقَل لم يكونوا على دراية باللغة العربية التي يتحدث بها المعتقَلون.

وقدم الفصل الكثير من الأمثلة على تبنِّي الفكر المتطرف الراديكالي في السجون، والتقاء المهارات الإجرامية بالإرهاب، وأوضح أن الدعاية الجهادية لها تأثير ملحوظ في نزلاء السجون من المجرمين؛ إذ يلبي الخطاب الجهادي الاحتياجاتِ الشخصيةَ للمجرمين، ويشبع رغباتهم النفسية، بإقناعهم بالتوبة من الخطايا السابقة ابتداء، ثم الترخيص لهم بالاستمرار في سلوكهم الإجرامي تحت شعار جديد هو الجهاد المقدس! وأكد المؤلف أن المجموعاتِ الجهاديةَ تتعمَّد استهدافَ المجرمين ضمن إستراتيجية التجنيد لديها. وأثبتت الأمثلة الحديثة من أوربا وجود عَلاقة بين التحول إلى الدين والراديكالية وخلفية الأفراد الإجرامية، فإن خلفية الأفراد الذين قاموا بتنفيذ اعتداءات باريس 2015 وبروكسل 2016 وبرشلونة 2017 تشير إلى أن الحياة الإجرامية تعزز الشبكات المتطرفة وتوفر لها التمويل بارتكاب الجرائم مثل: تجارة المخدرات والسطو والتزوير، وغيرها من النشاطات غير الشرعية.

السجون والحَجْر الأيديولوجي

توشَّح الفصل الرابع من الكتاب بعنوان السجون والحَجْر الأيديولوجي، وانطلق من القناعة بأن السياسات التي تتَّبعها سلطات السجن من تشديد الحراسة، وفرض إجراءات إضافية على نزلاء قضايا التطرف والإرهاب، لا يتعارض أبدًا مع أي برامجَ إصلاحيةٍ أو تأهيلية يمكن تطبيقها على هذه الفئة من النزلاء، بل على سلطات السجن وأصحاب القرار الأمني أن يطمحوا إلى تحقيق النتيجتين معًا. ويرى المؤلف أن نظام السجون الخاصَّ بالإرهابيين ينبغي أن يراعيَ فهم السجناء المعبَّئين سياسيًّا وأيديولوجيًّا فهمًا دقيقًا، ومعرفة الدوافع إلى سلوكهم داخل السجون، هذا السلوك الذي قد يسعى إلى حشد الأنصار خارج السجن، أو تجنيد الأتباع وبناء هياكل قيادية داخل السجون.

> **تشديد الحراسة، وفرض إجراءات إضافية على نزلاء قضايا التطرف والإرهاب، لا يتعارض مع أي برامجَ إصلاحيةٍ أو تأهيلية يمكن تطبيقها عليهم**

ومع استثناء بعض الدول التي وصلت إلى هذه النتيجة، إن معظم الدول في العالم تُعنى بالأمن أولًا Security First في التعامل مع هذه الفئة من نزلاء السجون، وذلك بعزلهم عن بقية المساجين، أو تشتيت بعضهم عن بعض في سجون مختلفة. وفي جميع الأحوال تكون الأولوية دائمًا لتشديد الحراسة، وتعقيد الإجراءات الأمنية في التعامل معهم، مع القليل من الاهتمام بإعادة إصلاحهم وتأهيلهم وتطبيق البرامج الخاصة بذلك.

وناقش هذا الفصل من الكتاب الأنظمة الخاصة بسجون نزلاء قضايا التطرف والإرهاب، والسياسات التي تتبعها سلطات السجون لمنع انتشار الراديكالية فيها، وأجرى مقارنة بين السياسات المختلفة في هذا الإطار، في محاولة لاكتشاف التحديات التي فرضها النزلاء المتطرفون والراديكاليون على الدول، وبالرغم من محاولات نزع الخصوصية عن نزلاء قضايا التطرف والإرهاب، إن واقع أنظمة العدالة الجنائية يقول خلاف ذلك، فالنزلاء المحكومون أو الذين مازالوا في قيد الاتهام والمحاكمة لارتكابهم الجرائم الإرهابية يختلفون عن بقية النزلاء؛ إذ يكون التحقيق معهم من قِبَل وكالات أمنية خاصة تختلف عن تلك التي تحقق مع

المجرمين الجنائيين، ويُحوَّلون إلى المحاكم بموجب قوانينَ وتشريعاتٍ وإجراءات تختلف عن بقية المجرمين. وكذلك القانون الذي يجرِّم أفعالهم يختلف عن القانون الذي يجرِّم أفعال المجرمين الجنائيين، والمحكمة التي تنظر قضاياهم في الغالب تختلف عن محاكم الجنايات التي تنظر قضايا الإجرام الجنائي. فضلًا عن أن طبيعة الجرائم الإرهابية التي تستهدف الدول أو الأنظمة السياسية أو المجتمعات تختلف تمامًا عن طبيعة الجرائم التي يقترفها المجرمون الجنائيون.

إن فكرة عدم خصوصية نزلاء القضايا الإرهابية تتناقض صراحةً مع الإجراءات المعقَّدة والمشددة التي تتخذها سلطات السجون في التعامل معهم، وهي تمنع سلطات السجن من تطوير فهمها الدقيق للتحديات التي تفرضها هذه الفئة من النزلاء، على اعتبار أنهم لا يختلفون عن بقية السجناء. ومن هنا فإن نظام السجون الخاصَّ بنزلاء قضايا التطرف والإرهاب ينبغي أن يُعنى بفهم طبيعة هذه الفئة من النزلاء المعبَّئين سياسيًّا وعقديًّا على خلاف بقية النزلاء.

ويعرِّج الفصل على أهم الصعوبات التي تواجهها سلطة السجن في التعامل مع نزلاء قضايا التطرف والإرهاب، وهي أن هذه الفئة من النزلاء لا يرَون أنفسهم مجرمين، بل يرَون أن وجودهم في السجن فرصة لمتابعة كفاحهم، ويُخلصون أنفسهم لتحويل السجن إلى أرض المعركة؛ ليتمكنوا من دعم قضيتهم.

الديراديكالية (Deradicalization)

أما الفصل الخامس من الكتاب فكان بعنوان (الديراديكالية)،(نزع الراديكالية) ويعني اجتثاثَ الراديكالية. وهو يشير إلى البرامج الموجهة إلى إعادة تأهيل أولئك الذين انجرفوا إلى التطرف العنيف والإرهاب؛ تمهيدًا لإعادة دمجهم في المجتمع. ويمكن أن تكون أكثر تحديدًا بالقول: إنها البرامج التي تُنفَّذ في السجون وأماكن الحجز، وتستهدف فئة نزلاء قضايا التطرف والإرهاب.

ومراجعة الدراسات المتعلقة بالديراديكالية يتضح أن الفقه الغربي يكاد يُجمع على أنها العمليات والخطوات التي تضادُّ الراديكالية؛ لذا فإن جهود (الديراديكالية) يجب أن تتضمن تدخلًا إيجابيًّا يقدم مضمونًا يُراعي ظروف المتطرف أو الإرهابي ويعامله معاملةَ من قد ضلَّ عن الطريق الذي يسلكه بقية أفراد المجتمع، ويساعده على تصحيح مساره. ومن هنا يظهر مدى التنوع الكبير في أهداف (الديراديكالية) ووسائلها على مستوى الفرد أو المجموعة، مثل: العفو العام، والنصح والإرشاد، وإعادة البرمجة والتأهيل، والحوار والإقناع، ووقف التعبئة الفكرية والنفسية، وفك الارتباط بالمجموعات المتطرفة والإرهابية، والتصالح وإعادة الاندماج بالمجتمع.

> **جهود نزع التطرف يجب أن تتضمن تدخلًا إيجابيًّا يُراعي ظروف المتطرف أو الإرهابي ويعامله معاملةَ من ضلَّ الطريق، ويساعده على تصحيح مساره**

وقد ظهرت الديراديكالية كتقنيات هندسة اجتماعية في برامج إعادة التأهيل التي تُنفَّذ في السجون، وكان اهتمامها منصبًّا على أعضاء الميليشيات الثورية الذين خرقوا قواعد القانون وارتكبوا الجرائم. وأقوى الأدلة التي تثبت نجاح برامج الديراديكالية هو انعدام أو انخفاض معدل العودة إلى النشاط الإرهابي بعد الإفراج والذي يسمى بالانتكاسية Recidivism. وتتفاوت برامج الديراديكالية المنفَّذة في السجون بين أن تكون مجردَ حوار ديني يسير (بسيط) بين النزلاء والمرشدين الدينيين، مثل البرنامج الأسترالي الذي نفذه في سجن Goulburn بمدينة فكتوريا المجلسُ الإسلامي هناك. أو أن تكون برامجَ دينية محدودة المدة، مثل البرنامج الموريتاني الذي استمر مدة أسبوعين. أو برامج متطورة ومتقدمة كالبرنامج السعودي الذي يستمر مدة سنتين. وكذلك البرامج التي تستخدم الأعضاء السابقين في الجماعات المتطرفة والإرهابية الذين رجعوا إلى الحق وتخلَّوا عن

هـذا الفكر والمـمارسة، كالبرنامج الإنـدونيـسي الـذي استعان بالأعضاء السابقين في الجماعة الإسلامية؛ إذ تطوع القيادي السابق فيها ن ناصر عباس لمحاورة زلاء الجماعة ومناقشتهم في السجون، وكان لهذا أثر إيجابي بالغ في مُعتقداتهم وسلوكهم، وبخاصة فيما يتعلق باستهدافهم المدنيين.

وفيما يتعلق بأهداف البرامج الوطنية للديراديكالية(نزع الراديكالية) ، فهي عـادةً ما تكون متعددة الأهـداف، وقد لخَّصها Horgan وBjørgo عام 2009 بما يأتي:

- تقليل أعداد الناشطين الإرهابيين.
- تقليل العنف وضحاياه.
- إعـادة توجيه الآراء الأيـديـولوجـيـة وتـقـويم سلوك المشاركين.
- إعـادة التأهيل الاجتماعي للأعضاء السابقين تمهيدًا لإعادتهم إلى الحياة الطبيعية.
- جمع المعلومات والشهود في القضايا المنظورة في المحاكم.
- الاستفادة من الإرهابيين السابقين في الترويج للآراء التي تنبذ الإرهاب.
- زرع بذور الخلاف في الوسط الإرهابي.
- توفير مَخرَج للإرهاب والحياة السرِّية.
- تقليل الاعـتـماد على الوسائل القمعية في مكافحة الإرهاب، واستبدال الوسائل الإنسانية بها.
- تقليل التكاليف الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على حجز أعداد كبيرة من الإرهابيين في السجون لأوقات طويلة.
- زيادة شرعية الحكومات والمؤسسات المعنية.

أهداف البرامج الوطنية لنزع الراديكالية

برامج الديراديكالية الوطنية

ويستعرض الفصل السادس من الكتاب برامج الديراديكالية الوطنية، ويؤكد المؤلف أن تصميم برامج الديراديكالية ليس أمرًا سهلًا، وبخاصة من ناحيتين: الأولى ترجع إلى قدرات الدولة وإمكاناتها، ونظام العدالة الجنائية الذي تتبناه، والفلسفة العقابية التي تنتهجها، وسياسة مكافحة الإرهاب التي تتبعها، والتحديات والقيود التشريعية التي قد تقف عائقًا أمام الكثير من الخطوات اللازمة لنجاح البرنامج. والثانية طبيعة المحتوى والمضمون الخاصّ بالمجموعات المتطرفة والإرهابية التي يتعامل معها البرنامج؛ إذ إن طبيعة الفكر المتطرف وقوته الأيديولوجية ومدى شعبيته ومناصريه بين أفراد المجتمع الكبير لها أثر عميق وجوهري في قدرة البرنامج على تحدي أفكاره المركزية ونزع الشرعية عنها، خصوصًا إذا كانت الأوضاع الاقتصادية والظروف المعيشية للمواطنين، والسياسات الخارجية والداخلية للدولة، لا تحظى بالرضا والقَبول من مواطنيها، فهذا مما يزيد من قوة شوكة معارضيها ومنهم المجموعات المتطرفة.

بدأ الفصل بمناقشة برامج الديراديكالية في الشرق الأوسط وتحديدًا البرنامجين اليمني والسعودي، في محاولة لفهم لماذا حقق البرنامج السعودي النجاحات الكبيرة، في حين لم يحقق ذلك شقيقه اليمني؟! وأجرى الكاتب مراجعة سريعة لجهود السلطات الأمريكية في إعادة تأهيل المحتجزين العراقيين، وتقييم مدى ملاءمة برامج الديراديكالية للحالة العراقية. وناقش جهود الحكومتين المصرية والليبية في تطبيق برامج الديراديكالية الجماعية على المنظمات الإسلامية الجهادية في سجونهما. وأخيرًا ألقى الضوء على التجرِبة المغربية الحديثة لإعادة تأهيل نزلاء قضايا التطرف والإرهاب في سجونها.

وأكد الفصل أن برنامج المناصحة السعودي يُعَد من أنجح البرامج عالميًّا؛ إذ استند في تعامله مع المتطرفين إلى توفير عدة خِيارات للمنخرطين في البرنامج، واستحضار تاريخ السلف والقيم الثقافية، والإفادة من تجارِب الدول الأخرى في مكافحة الإرهاب والعصيان المسلَّح.

> **برنامج المناصحة السعودي من أنجح البرامج على المستوى العالمي؛ إذ يوفر عدة خيارات للمنخرطين فيه ويفترض فيهم النزعة إلى الخير وحسن النية، ويستفيد من تجارب الدول الأخرى.**

وقد أُسِّس على افتراض النزعة إلى الخير وحسن النية عند النزلاء، وأن المشاركين في البرنامج هم من المغرَّر بهم، وأن البرنامج جزء من المساعدة التي تقدمها الدولة لهم لأنهم يستحقون أن يُمنحوا فرصةً ثانية للعيش في مجتمعاتهم بسلام. ومن محاسن البرنامج استفادة الحكومة السعودية من المتطرفين التائبين في المناصحة إلى جنب علماء الدين والدعاة لإضفاء الشرعية على جهودهم.

ويتألف البرنامج السعودي من عدة مكوِّنات تهدف إلى إيصال رسالة للمتطرفين أن مسلكهم ليس في مصلحة المسلمين، وقد نجحت الحكومة السعودية في تطوير البرنامج بحيث يشمل عائلات المحتجَزين، وفصل المتطرفين المتشددين عن بقية النزلاء، وحجزهم في مراكز تأهيل قريبة من مكان إقامة عائلاتهم لتسهيل حصولهم على دعم الأهل، وأيضًا انخراط الأهل في البرنامج وتعجيل اندماجهم في المجتمع؛ إذ قد تأكد وجود عَلاقة وثيقة بين أسلوب التعامل معهم في مدة الحجز وكيفية انخراطهم في المجتمع بعد الإفراج عنهم.

وناقش هذا الفصل أيضًا البرامج في جنوب شرقيّ آسيا؛ كالبرنامج السنغافوري والماليزي والإندونيسي والتايلندي، وقدم فكرة واضحة عن منطق هذه البرامج وفلسفتها ونتائجها، مع الاهتمام بالتجرِبة الإندونيسية في الاستعانة بالإرهابيين السابقين التائبين، كالقيادي السابق في الجماعة الإسلامية في جنوب شرقيّ آسيا ناصر عباس الذي أسهم جدًّا في نجاح البرنامج، ومساعدة السلطات الإندونيسية في إقناع نزلاء قضايا التطرف والإرهاب في السجون الإندونيسية بالرجوع عن الفكر المتطرف والتخلي عن العنف والمشاركة بالبرنامج.

مكافحة الراديكالية

وخُصِّص الفصل السابع من الكتاب لبرامج مكافحة الراديكالية، ومع أن الاصطلاحين (الديراديكالية) و(مكافحة الراديكالية) يدلان على معنًى واحد هو مواجهة الراديكالية، إن الفقه الغربي يميِّز بين كلا الاصطلاحين تمييزًا كبيرًا. فبحسب Horgan إن الديراديكالية Deradicalization هي الخطوات التي تُتَّخذ بعد ارتكاب الجريمة ، أي أنها البرامج والمشاريع التأهيلية التي تستهدف الأفراد الذين تورطوا في النشاطات والأفعال الراديكالية فعليًّا. في حين يُستخدم اصطلاح مكافحة الراديكالية - للتعبير عن البرامج والمشاريع التي تستهدف الأفراد الذين يحملون الأفكار الراديكالية في مرحلة ما قبل ارتكابهم للجرائم والأفعال الراديكالية والمشاركون بهذه البرامج من الممكن أن يكونوا من حملة الأيديولوجيا الراديكالية، أو الذين يُنظر إليهم على أنهم مرشَّحون محتملون لتبني الفكر الراديكالي.

ومن ثَمَّ فإن البرامج والمشاريع التي تهدف إلى مكافحة الراديكالية تُنفَّذ على نطاق واسع خارج حدود السجون على من لم يقع منهم الأفعال الإجرامية، في حين تُنفَّذ برامج ومشاريع الديراديكالية في السجون على الأشخاص الذين ارتكبوا الجرائم.

تطرق الفصل إلى جهود مكافحة الراديكالية كمفهوم مستقلٍّ عن برامج الديراديكالية، واستعرض أهم التجارِب الدَّولية في مكافحة الراديكالية؛ كالنهج البريطاني والهولندي والدنماركي.

الممارسات الجيدة

لخَّص الفصل الثامن والأخير من الكتاب العناصرَ الأساسية المتحصلة من الخبرات والممارسات الجيدة والإيجابية التي تقف وراء نجاح برامج الديراديكالية في التعامل مع نزلاء التطرف والإرهاب في السجون.

ويرى الفصل أن نجاح برامج الديراديكالية يعتمد اعتمادًا رئيسًا على مكوِّناتها، وبالرغم من وجود عدد من العوائق التي تحول دون التقييم الحقيقي والدقيق لبرامج الديراديكالية، إن أقل ما يمكن أن يكون مؤشرًا لنجاح هذه البرامج هو أن الأغلبية العظمى ممن شاركوا بها استمروا منشقين تمامًا عن المنظمات المتطرفة، ولا يخفى أن الجهود المبذولة في تعزيز اعتدال المتطرفين السابقين قد لا تخلو من بعض مظاهر الإخفاق أو الضعف، إلا أن استمرار انفصال المتطرفين السابقين عن المنظمات المتطرفة هو نجاح كبير لهذه البرامج.

برامج إعادة التأهيل التي تحتوي على مكوِّن أيديولوجي مستمر هي الأكثر احتمالًا للنجاح؛ لأنها تكافح كل أنماط الالتزام تجاه المنظمات الراديكالية، وتوفر الدعم المستمرَّ لضمان عدم عودة المشاركين بالبرنامج إلى الفكر المتطرف

وتتسم جهود إعادة التأهيل التي تحتوي على مكوِّن أيديولوجي يستمر بعد إتمام البرنامج - تتسم بالواقعية، وهي البرامج الأكثر احتمالًا للنجاح؛ لأنها تكافح كل أنماط الالتزام تجاه المنظمات الراديكالية، وتوفر الدعم المستمرَّ لضمان عدم عودة المشاركين بالبرنامج إلى الفكر المتطرف. وإن البرامج الأكثر فاعلية هي التي تأخذ في الحسبان الجانبَ النفسي والاجتماعي، وتوفر الاستشارة اللازمة لمساعدة المشارك على تحصيل الدعم الاجتماعي من جديد، وتتعامل مع العوامل الواقعية مثل توفير التدريب المهني، والمساعدة على توفير فرصة العمل المناسبة، والرعاية اللاحقة بعد الإفراج عن النزيل.

التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب
ISLAMIC MILITARY COUNTER TERRORISM COALITION

التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب
ISLAMIC MILITARY COUNTER TERRORISM COALITION

@IMCTC_AR
@IMCTC_EN
@IMCTC_FR

www.imctc.org